ما تكشفه المقاربات القائمة (القليلة الكثيرة) لمأساة دارفور
نهلة الشهال الحياة - 06/09/24//

الوقائع حول المأساة الجارية منذ 2003 في إقليم دارفور السوداني معروفة للملأ. أضيف للجوع والعطش في هذه المنطقة القاحلة، الفظائع المصاحبة للحروب من قتل ودمار ونزوح. يحكى الكثير عن أكبر معسكر في العالم للنازحين، الواقع داخل الحدود التشادية، حيث يتكدس مائتا ألف دارفوري، يحظون بما هو قليل وغير كاف من رعاية المنظمات الدولية المختصة، ويعانون الكثير من الخوف لقربهم من الحدود ومن إمكانية التعرض للهجمات، ولوجودهم تحت رحمة تقلبات المصالح السياسية للبلد المضيف، ولانتشار كل أنواع الممارسات الإجرامية في وسطهم والتي يقوم بها أبناؤهم المنخرطون في المجموعات المسلحة المتمردة.

هؤلاء بعض من عدة ملايين يقطنون تلك المنطقة، كانت حياتهم قبل ذلك بائسة إلى حد غير مقبول فجعلتها الحرب جحيما لا تبدو له نهاية ظاهرة. هل يمكن نسيان تلك المشاهد التي يتكرر بثها عبر الشبكات التلفزيونية، لأرض ترابية حمراء تحرك غبائرها ريح لا تتوقف تشي بالجفاف والقحط اللذين يستوطنان المنطقة، وخيام متناثرة، ووجوه أناس أوهنهم الجوع واليأس، وبعض الحيوانات النادرة الوجود والهزيلة؟

انفجر العنف في دارفور حين اقترب العنف الآخر، المندلع منذ عقود في المناطق الجنوبية، والذي نخر كيان السودان نخرا تاما، من إيجاد حلول تشير إلى الأمل بامكان توقفه. تلك كانت حرب المياه والنفط حيث يشار إلى احتواء ارض غرب السودان على المعادن الثمينة. تلك كانت القبائل الإفريقية السوداء، غير العربية وغير المسلمة والمتوزعة بين المسيحية والوثنية، وهي هنا القبائل الإفريقية السوداء، المسلمة وغير العربية.

ربما احتاج فهم ما يجري في السودان إلى المزاوجة بين قوة الاعتبارات الاقتصادية وتلك العائدة إلى الجيو- إستراتيجيا، مضافا اليهما صعوبة التعايش بين مجموعات بشرية ذات انتماءات دينية وعرقية مختلفة. هكذا يقال لدى مقاربة السودان في الدراسات الرائجة.

إلا أن هذا المنطق يغفل التطرق إلى نقطة أساسية : كيف حدث أن عناصر المشكل تقدم نفسها على هذه الصورة من المباشرة أو من الفجاجة؟ ألا يشي ذلك بتفكك تام في بنية البلاد؟ وما الذي يمكن أن يكون سبب هذا التفكك؟ هذا علاوة على الأسئلة الكلاسيكية المطروحة بخصوص هذا البلد الهائل، وأولها انه لا يعقل أن يكون السودان على هذا القدر من البؤس وهو من أغنى بقاع الأرض بكل شيء، وثانيها يسأل عما يجعل نزاعات تستمر عقودا بلا حل.

لعل دارفور تحمل إجابات تساعد على الرجوع بعد ذلك إلى مجمل المسألة السودانية. بل لعلها تساعد على فهم أحداث تجري في مناطق أخرى من العالم العربي بعيدة كثيرا عن السودان. وفي هذا المعنى، قد تكون دارفور تلك، والتي تبدو حالة خاصة واستثنائية، نموذجية أكثر بكثير مما يبدو في ظاهر الأمر.

انفجار الصراع على هذا النحو في دارفور هو بالتأكيد إحدى النتائج الملموسة لمخططات السياسة الأميركية في أفريقيا التي قطعت شوطا كبيرا في إحكام سيطرتها على القارة السمراء، وهي مخططات يمكن الاستدلال ببراهين عديدة على وجودها، بل تكاد هي نفسها تجاهر بذلك. ولا يوجد أيضا من ينفي تقدم النفوذ الإسرائيلي تقدما حثيثا في كافة أرجاء تلك القارة. وإنما يفترض أن ذلك من البديهيات، وهو بالتالي لا يشكل حجة كافية لإغلاق النقاش حولها. لا يتعلق الأمر بنفي وجود «مؤامرة»، وإنما بتفحص أسباب نجاحها، ثم برؤية الوسائل المناسبة لمواجهتها. وفي هذا بالتحديد تخرج دارفور من خصوصيتها لتصبح نموذجية.

أكثر من ذلك. فبعد الجريمة الإسرائيلية-الأميركية المرتكبة هذا الصيف في لبنان وعليه، لوحظ تحرك الشبكات الصهيونية في أوروبا بكثافة تتجاوز المعهود، لحمل قضية دارفور بصورة دائمة في مقالات الصحف والمناظرات التلفزيونية والإذاعية، وأخيرا في الشارع، حيث لم يعد يمكن لأي تجمع مـــن أجـــل فلسطين أو ضد السياسة والممارسات الإسرائيلية إلا أن يُطرح عليه وبعدوانية تهدف الى «فضح» انتقائيته، موضوع مأساة دارفور. وهكذا، وعلى سبيل المثال، وجدت جمعية «النساء المتشحات بالسواد» في فرنسا، وأغلبيتهن من المناضلات اليهوديات ضد السياسة الإسرائيلية، أن تجمعا يضم شخصيات ثقافية وفكرية مشهورة ومعروفة في الوقت نفسه بصهيونيتها، حل على مكان اعتصامهن الأسبوعي العام المعتاد وفي الساعة التي مضى على اعتمادها سنوات، رافعا شعارات تندد بالجريمة المرتكبة في دارفور! وكان من الجلي أن الهدف تقزيم الجريمة الإسرائيلية في فلسطين وفي لبنان، مستخدما أسلوب مقارنة عدد الضحايا. وهو ما يمكن ملاحظته في ما يخص العراق أيضا حيث بات يطالع أي مستنكر لجريمة إسرائيل هذا الصـــيف أو لجريمتها الدائمة في فلسطين، من يقول إن عدد الضحايا العراقيين الذين يقعون في شهر واحد، وبيد عراقيين آخرين، يفوق عدد ضحايا هذه وتلك. ولا شك انه

من الفظيع تماما، ومن غير الأخلاقي، دفع الضحايا إلى التنافس بل وضعهم في موقف التصارع. إلا أنه لا يحقق هذا المؤدى هؤلاء وحدهم من الصهاينة الذين يمرحون على الساحة بيسر لا يملكه سواهم، بل يساعدهم بعض الناطقين باسم العروبة وفلسطين أو ضد السياسة الأميركية.

فهؤلاء يرفضون رؤية أي بعد في مأساة دارفور سوى ذلك المتعلق بالتلاعب الاستعماري بها: إنها إحدى البؤر التي يرتكز إليها المشروع الأميركي للهيمنة على العالم، وفي الحالة هذه تحديدا، الهيمنة على إفريقيا وتوسيع نطاق الصراع القائم والمتعلق بالمنطقة العربية-الإسلامية. وهذا المشروع يضرب بذلك عصفورين بحجر واحد. أما الكارثة الإنسانية فتصبح ثانوية، يجري الإقرار بوجودها، وإنما يصاحب «بالطبع» التي تقال بسهولة حسما للنقاش، أو تجنبا لوقوفه طويلا أمام هذه النقطة، تلميحات إلى المبالغة المرجحة في توصيف الوقائع، وكذلك إلى إثارة الشك حول الجهة المسؤولة عن وقوع الكارثة وعن واستمرارها، والأهم القفز من فوق أسبابها. ثم يجري الانتقال سريعا إلى تناول وقائع التوظيف الراهن لها، والذي يبرز غايات الإدارة الأميركية والاستخدام الإسرائيلي الوقح لها، لينتهي إلى تلك اللازمة المعتادة والتي ترتب الاولويات، فتلقي في سلة المهملات كل ما يحمل الاضطراب إلى «المسألة المركزية»: المواجهة مع مشروع الهيمنة الأميركي على العالم.

فهل يمكننا القول، وكعنوان عام، أن درافور، بغض النظر الضروري عن واشنطن وتل أبيب، تجسد أحد الأمثلة الصارخة عن الفشل في مقاربة مسألة الاندماج الوطني في كل بلد من بلدان المنطقة، وعن فشل المشروع العروبي/الاسلامي - الذي ساد في المنطقة مغلبا في كل فترة احد جناحيه على الآخر - في البروز كمشروع جاذب أو مغرٍ. وهو ما لا يمكنه أن يكون عليه إن لم يكن في جوهره مشروعا نهضويا على كافة الصعد، يعتمد ديموقراطية توافقية تصوغ مكونات الأمة بوصفها متعددة، تحميها المساواة في المواطنية، ويغادر تماما المفهوم القسري والعنصري في نهاية الأمر، والذي يخفي في الغالب أكواما من الفساد والتسلط والاعتباط، بحيث يصبح المنجز، حتى المنجز حين يتحقق، جزئياً، فلا تتوزع الثروة بعدل ولا تحدث تنمية دينامية، ويروح كل جزء يتربص بالآخرين ويمد أذنيه صاغيا لإغراءات من يوسوس له من الشياطين الكثر. والجزء، كما في كل مكان غير متناهي الانقسام، يمكن أن يكون اسود مسلما وإنما غير عربي كحال دارفور، أو غير مسلم كحال الجنوب السوداني، أو مسلما بربريا أو كرديا، أو عربيا غير مسلم، أو عربيا ومسلما وإنما من طائفة أو جهة أو عشيرة.

والمعنى، في آخر المطاف، ان الانكباب على حل مسألة دارفور بصورة سليمة يرتبط بقوة بالقضية الفلسطينية!